المورسكيون ومعركة الحفاظ على الهوية

د. شاكر لقمان

جامعة أم البواقي

ملخص :

لم تشفع القرون الثمانية التي مكثها المسلمون في الأندلس لهم بالبقاء في أرضهم آمنين سالمين ، بين مزارعهم التي زرعوها ، وفي قراهم ومدنهم التي شيدوها. ولم تمكّنهم حضارتهم التي أسسوها ولا ثقافتهم النيرة التي نشروها بفضل الدين الإسلامي و تعاليمه السمحة من الحصول على مكانة يستحقونها بين النصرانيين. بل كان مصيرهم الطرد النهائي لكل من رفض التنصير، أو التنصير التام لمَن فضّل البقاء لسبب أو لآخر . تلك هي نهاية المسلمين المورسكيين بعد معاهدة تسليم غرناطة آخر قلاعهم في أيدي الأسبان.

الكلمات المفتاحية: المورسكيون ، اللغة العربية ، الدين الإسلامي ، التنصير ، محاكم التفتيش ، الكنيسة.

The Moresks and and Identity Preservance Struggle

Abstract:

The eight centuries that Muslims stayed in Andalusia did not accompany them to remain in their land safe and secure, in their farms which they planted, And in their villages and cities they built. Their civilization which they founded, and their bright culture which they spread thanks to the Islam and its tolerance, did not enable them to gain a place they deserved among the Christians. But their fate was the final expulsion of those who refused to convert to Christianity, or the total conversion of those who prefer to stay for one reason or another, that was the end of the Morsean Muslims after the Treaty of Extradition of Granada, the last of their castles in the hands of the Spaniards.

Keywords: The Moresks ,Arabic Language ,Islamic Religion ,Christianization Church:,Inspection Courts,

مقدمة :

كان المسلمون المدجنون[1] قبل زوال دولتهم مقيدين مع النصارى بحكم معاهدة بينهما ، وقد كان لهؤلاء المسلمين بعضُ الحرية أول الأمر في ممارسة شعائرهم الدينية ، ومعاملاتهم التجارية وحتى السياسية ، ولم يكن هذا الأمر بلا مقابل ، بل هم مُلزَمون بالاعتراف بسيادة ملك النصارى عليهم ، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة الأُسَر المختلطة بالمصاهرة وبالمعاملة اليومية ؛ ذلك أن بعضا من ملوك النصارى كان قد تزوج بمسلمة ؛ كالملك ألفونسو الأول (الكاثوليكي) الذي تزوج من إحدى المسلمات وأنجب منها ولدا ورث ملكه ، وعبد العزيز الملقب بالفاتح الذي تزوج بأرملة الملك القوطي رودريقو (Rodrigo) لذريق ، وقد كان كل ملك يعاملهم بطريقته الخاصة بهم ، ومن المعاملات الحسنة [2] نذكر ما كان يقوم به الملك ألفونسو العاشر الملقب بالعالم الذي سعى سعيا كبيرا لتوحيد الجنسين المسلم والنصراني ؛ فأعطى المسلمين ــ وباستشارة من راهب يدعى " الأب ريموند" ــ الحريةً الدينية والفكرية وأَسَّس مدرسة لترجمة العلوم العربية بـــ "طليطلة " بعد أن جمع علماء المسلمين واليهود لترجمة العلوم من العربية إلى اللاتينية فبُدِئَ بترجمة القرآن الكريم والتلموذ .

هذا من جانب ، أما من جانب آخر و بعد أن استولى النصارى على أراضي المسلمين قبل سقوط غرناطة سنة 21 محرم 897هـــ / 25 نوفمبر 1491م قسموها إلى ثلاث فئات :

قسمة للمتنصرين ، وأخرى للمملوكين وثالثة للأحرار .

وهذه القسمة لا تعني ــ بأي حال من الأحوال ــ مساواة هذه الفئات ؛ لأن كل واحدة منها تُعامَلُ معاملة خاصة ؛ فالمتنصّرون كانوا يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها النصارى القدامى أو الأُصَلاء. أما المملوكون فكانوا بِأسوأ حالٍ ؛ بسبب الرقابة الشديدة المفروضة عليه في كل وقت وآن ، لذا تراه يتحيّن أية فرصة للهروب من رقابتهم واللجوء إلى المسلمين حيث الحريةُ والمساواة والعدالة بين الجميع.

وعلى العموم فقد كان المورسكيون [3] الذين آثروا البقاء في الأندلس ــ في بداية الأمر ــ يرعون شؤون أسرهم ويحفظون ممتلكاتِهم ويمارسون حقوقهم التي كفلتها لهم مواثيقُ المعاهدة في المادة الأولى وفي فقرتها الأولى التي تنص على الآتي ((أن يتعهد ملك غرناطة ، والقادة ، والفقهاء والوزراء والعلماء ، وكافة الناس...بأن يسلموا طواعية واختيارا ، ..على ألا يسمح لنصراني أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين ، حتى لا يكشف أحوال المسلمين ، وأن يعاقب مَن يفعل ذلك .)).[4]

ففي ظل هذه المادة سيعيش المسلمون في أمن وسلام ، ويمارسون شعيرتهم الإسلامية ، ويتحدثون بلغة القرآن التي بها نزل كما كانوا يفعلون . يكفل ذلك نصوصُ المعاهدة بين أبي عبد الله و فرديناند وإيزابيلا.

هذا في الظاهر الذي بفضله أَمِنَ المورسكيون شرَّ النصرانيين واطمأنوا ، إلا أنه في واقع الأمر كان عكس ما صودق عليه في المعاهدة المشؤومة .

وقد مسَّ التعسفُ والتضييق على الحريات كلَّ مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والدينية . كما كان مصير اللغة العربية والدين الإسلامي أولى ضحايا الخروقات لنصوص الاتفاقية المزعومة.

فكيف حافظ المورسكيون على لغتهم العربية ، وعلى دينهم الإسلامي في ظل سياسة التضييق المفروضة من طرف المسيحيين ؟

أ ــ اللغة العربية :

لم تكن اللغة العربية هي اللغة الأولى في إسبانيا الإسلامية ، كما أنه لم يكن يتحدث بها إلا ثلة من المورسكيين ؛ منهم الشهاب الحجري ، محمد بن عبد الرفيع (ت: 1052هـ /1643م) صاحب كتاب " الأنوار النبوية في آباء خير البرية " ؛ لأن انحسار اللغة العربية في القرن السابع عشر وقلةَ انتشارها يعود إلى التضييق الذي كانت الكنيسة الكاثوليكية تفرضه على كل مَنْ ينطق لسانه باللغة العربية ، مما اضطر أصحابها إلى اللغة القشتالية (الإسبانية القديمة) أو الأراغونية أو القطلانية و أو البرتغالية. فنشأت ما يسمى باللغة الإسلامية الجديدة ؛ وهي اللغة الأعجمية بالحرف العربي التي صارت لغة المورسكيين ؛ يكتبون بها أشعارهم ويرسلون بها نثرهم .[5]

من مظاهر التضييق على الناطقين اللغة العربية:

كانت اللغة العربية في الأندلس قاطبة غيرَ مَصونة الجناب ، ولا محمية الأطراف ، ذلك أن المسيحيين لم يكونوا يسمحون بالحديث بها

في كل المناسبات ولا التعامل بها كأداة تواصل بين المسلمين لا سيما بعد سقوط غرناطة آخر قلاع المسلمين ، أين صار هؤلاء المسلمون يخفون دينهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم أيضا ؛ فاضطروا إلى استعمال لغة " الألخميادو "(Aljamiado) السرية ؛ وهي مزيج من اللغة اللاتينية الإسبانية والحروف العربية.

وتوالت سنة 1526 م و 1566م القراراتُ المانعة لتداول الكتب العربية ، و تسجيل العقود بها ، وعُدَّ باطلاً كلُّ معاملة أو إجراء يتم بها ، والأكثر من هذا أَمهَلت السلطات الكنسية والحكومية المورسكيين ثلاث سنوات فقط لتعلم اللغة الإسبانية القديمة (القشتالية). وحتى يتم التحكم في هذا الإجراء كان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي يضم مجموعة من المتخصصين في اللغة العربية ؛ يتتبعون الناطقين بها خطوة خطوة ، ويترصدون عثراتهم ويحددون ــ بمعية أجهزة العقاب ــ طبيعةَ الجريمة المقترفة ،وتحديد ما يناسبها من العقوبة.

تحركت آلة الرقابة الكنسية لتتبع سريان اللغة العربية في المجتمع المورسكي ؛ إذ دخلت حيز التطبيق بسبب قانون الكنيسة ، مفاده أن امتلاك كتاب بالأحرف العربية يُعدُّ جريمةً يُعاقِب عليها القانون ، فوصل عدد المتهمين في فترة ما بأراغون تسعَمائة تُهمةٍ من بينها أربعُمائةٍ لمن يَحوز الكتب بهذه اللغة.

وتأكيدا لهذا التضييق نسوق كلام الفقيه عيسى بن جابر في القرن التاسع الهجري ، الذي يذكر الأسباب التي ألجأته إلى كتابة مجموعة من كتب الفقه والسنّة باللغة القشتالية ، فقال : ((...إن مسلمي قشتالة بسبب خضوعهم الكبير وبسبب الضرائب العالية والعناء المفرط شيئا فشيئا ضاعت منهم الممتلكات والمدارس واللغة العربية ، ونظرا إلى هذا الخَصَاص طلب مني أصدقائي بكل عطف وإلحاح كبير منهم خصوصا المورعين الكرماء ، والتمسوا مني باستعطاف بالغ أن أجمع باللغة الرومنسية كتابا مختصرا حول فقهنا والسّنّة ، وكذا كل ما يحتاج المسلم الصالح ويعمل به ، وهكذا لم يكن لي بدٌّ إلا أن أقبل هذا الطلب)).[6]

بل ومن مظاهر التضييق على أمور طبيعية ، كأكل الكسكسي Alcuzcuz ((يذكر أن مسيحي (مسيحيا) يدعى خوان دي بورغش Juan de Burgos تناول ذات مرة هذا الطبق الشعبي فكان جزاؤه حمله إلى محاكم التنكيل بطليطلة سنة 1538م للخلاص منه.))[7]

ذلك لأنهم أحسُّوا بخطورة اللغة العربية على مستقبلهم برمته ؛ فها هو أحد كبار الأساقفة وأعداء اللغة العربية يدق ناقوس الخطر ــ حسبه ــ ليتهددهم في كل مكان بقوله : ((احذروا ، إنها العربية ، فرصتُهم الوحيدة لتشكيل الخطر ضدَّنا)).[8]

رد فعل المورسكيين :

ولعل أول طريق يستطيع المورسكيون من خلالها الحفاظ على هويتهم ودينهم ولغتهم هي " اللغة الخميادية " ، والتي بفضلها استطاعوا ترجمة نصوص إلى هذه اللغة ولكن بحروف عربية ليتم التواصل بينهم وبين إخوانهم في أي مكان ، ولا يخفى على أحد بأن هذه الوسيلة كانت نتيجة القمع والإرهاب الفكري والجسدي الذي كانت تمارسه محاكم التفتيش[9].

وكانت ألسنتهم الفصيحة دليلا على تمكن اللغة العربية منهم : ((وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها غرب كثير وتغلب عليه الإمالة)).[10]

فمن خلال هذا النص نتبين مدى سيادة اللغة العربية آنئذ ، والأمر لم يكن عاديا ههنا ؛ لأن بعض الملوك والرهبان كانوا يسعون إلى توحيد الجنسين المسلم والنصراني تحت قبة واحدة ، مما دفع بهم إلى دعوة الأندلسيين النصرانيين إلى ضرورة تعلم اللغة العربية وترجمة علومها بدءًا بالقرآن الكريم الذي أكبّ العلماء على ترجمته إلى جانب تلموذ النصارى.

وكان مبدأُ التقية السبيلَ المخلِّص من هذا البطش ؛ بحيث يتسترون ويتراءون للمسيحيين بأنهم مُنَصَّرون ، ويذهبون معهم إلى الكنيسة كل يوم سبت ، ويلبسون زيَّهم متظاهرين بالنصرانية الكاثوليكية حفاظا على دينهم الإسلامي الذي يمارسون شعائره خفية.

والجدير بالذكر أن تراث المورسكيين المحفوظ في مخطوطات ، كان معظمه مَخبوءًا بين جدران بيوتهم وفي سقوفهم ، وفي أماكن لا تصلها أيدي المسيحيين ؛ كالجبال والوديان والكهوف ، وما تلف من هذه المخطوطات الثمينة يرجعون في استذكارها إلى ما حفظتها صدورهم عبر مراحل مختلفة ، ويلقّنونه أبناءَهم وأهاليهم ، ويحرصون على ذلك كل الحرص.

ولم يكن يخفى على المسلمين حينئذ ما ترمي إليه سياسةُ الكنيسة في القضاء التام على ما يربطهم بدينهم ولغتهم ، ويحفظ شخصيتهم ، فأمعنوا في التضييق عليهم إلى حد لا يطاق ، وكان المضطهَدون مدركين لذلك ؛ وخير مثال نسوقه لهذه الحقيقة تلك الكلمة المجلجلة التي ألقاها فارس غرناطة يوم أقدموا على تسليم آخر قلاع المسلمين في الأندلس : ((أتعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم ، وأن يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ما له من حسن الطالع؟ لشد ما تخطئون. إنهم جميعا ظمئون إلى دَمِنا والموت خير ما تلقون منهم ، إن ما ينتظركم شر الإهانات ، والانتهاك والرق ، ينتظركم نهب منازلكم ، واغتصاب نسائكم وبناتكم ، وتدنيس مساجدكم ، تنتظركم المحارق الملتهبة ، لتجعل منكم حطاما هشيما.)).[11]

ومن المفيد أن نشير ــ هنا ــ إلى حجم الكتب التي التهمتها النيران ، وبخاصة تلك التي كانت في رفوف مكتبة غرناطة الشهيرة ؛ إذْ كانت تضم أضخم ما أنتجه الفكر العربي الإسلامي من أجناس مختلفة شاركت في إبداعه. لم يُكْتَفَ بهذا الأمر فحسب ، بل أُمِرَ المورسكيون كلُّهم بأن يسلِّموا ما بحوزتهم من مؤلفات لها علاقة باللغة العربية والدين الإسلامي ، وقد أشرف على هذه العملية الإرهابية الكاردينالُ خمنيس ألد الأعداء للإسلام والمسلمين ، ((هو أنه أمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية من أهالي غرناطة وأرباضها ، ونظمت أكداسا هائلة في ميدان باب الرملة ، أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف ، وآلاف من كتب الآداب والعلوم ، وأضرمت النيران فيها جميعا ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم حملت إلى الجامعة التي أنشأها في مدينة ألكالا دي هنارس ، وذهبت ضحية هذا الإجراء الهمجي عشرات ألوف من الكتب العربية ، هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الإسلامي في

الأندلس.))[12] ، تعد كنوزا بشرية ، جمعت في حقب طويلة ، تعود إلى ثمانية قرون . ويسلط على الممتنع أقسى العقوبات ؛ أولها التعذيب بأشد أنواعه وآخرها الحرق . ولم تكن هذه الإجراءات الردعية مرة واحدة فقط ، وإنما تبعتها مرات ومرات بقصد اجتثاث شأفة المسلمين من الأندلس.[13]

ويتعجب أحد المؤرخين الأمريكيين ، يدعى " وليم برسكوت " قائلا : ((إن هذا العمل المحزن لم يقم به همجي جاهل ،وإنما حَبْرٌ مثقفٌ ،وقد وقع لا في ظلام العصور الوسطى ، ولكن في فجر القرن السادس عشر ، وفي قلب أمة مستنيرة ، تدين إلى أعظم حد بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها.))[14] .

فهذا العمل يدل دلالة لا يرقى إليها شك على العنصرية المقيتة ، والعمى الذي أصاب الإسبانيين المسيحيين في ذلك الوقت مما دفعهم إلى الإتيان على الأخضر واليابس ، و الإجهاز على كل ما يَمُتُّ بصلة إلى الإسلام والمسلمين ، غيرَ مراعين في ذلك قيمةَ ما أحرقوه بقلوبهم قبل نيرانهم ، والذي ينتمي إل تراث بشرية بأكملها أسهم فيها العربيُّ وغيرُ العربي ، المسلم وغير المسلم.

ويذكر الباحث محمد حتاملة[15] من الكتب التي كانت مرجعا أساسا للمورسكيين كتاب " مختصر في السنة " ــ أو الكتاب الشقوبي ــ El-quiteb Segoviano لمؤلفه عيسى بن جابر ــ فقيه مسجد شقوبية الجامع ــ يتضمن مواضيع في الأخلاق والشريعة.

وكتاب آخر لمؤلف مجهول في العقيدة وما ينبغي للمسلم أن يعرفه هو Curioxax De La Creencia y Lo que debe Xaber el Mahometano y otrax coxac .

وحفاظا من المورسكي على خصوصيته وشخصيته الذاتية ، ومنها اللغة العربية التي تعد من أوكد عناصر هذه الشخصية يقول باحث : ((وقد ارتبط الأندلسيون في هذه الفترة ارتباطا وثيقا باللغة العربية، فلقنوها لأبنائهم ، وتدارسوها فيما بينهم ، وكتبوا بها حسب المستطاع .))[16]

وفي السياق ذاته وبيان فضل اللغة العربية يقول الشهاب الحجري : ((وكل لسان مختلف عن غيره ، وهذه العربية وحيدة في الدنيا . وقالوا الحق في ذلك. فهو كلام مبارك ، ومن تكلم بها لا بد يذكر الله . ولذلك يقول بعض من الأندلس (أي أهل الأندلس) : لا عربية بلا الله ، ولا عجمية بلا شيطان ، لأن النصارى يذكرونه في كلامهم ، ولا يكره العربيةَ والكلامَ بها إلا من لا يعرف فضلها وبركتها)).[17]

ويذكر المؤلف نفسه، وفي الصفحة ذاتها أنه أول ما تكلم به ببلاد الأندلس كان العربية ، كما تعلم القراءة الأعجمية (أي الإسبانية) للأخذ والعطاء(أي التواصل).

وحتى يحافظوا أيضا على لغتهم العربية أكثرَ كتبوا اللغةَ الخميادية بالأحرف العربية ؛ لأنها الحروف التي نزل بها القرآن الكريم إكراما لها وتقديسا. و في هذا التمسك بالحرف العربي تحدٍّ ورفضٌ للواقع الذي لا يريدون الانصهار فيه ولا الذوبان في أَتُونِه ، ويؤكد هذه الحقيقةَ المستشرقُ الإسباني بالقول بأن المورسكيين : ((لم يتخلوا قط عن أحرف الهجاء العربية ، واستمروا يكتبون بها ما لديهم من معارفهم

الضئيلة عن علوم الإسلام للحفاظ على عقيدتهم من ناحية ، ولتعمية متعقبيهم عن فحوى ما يكتبون من ناحية أخرى.))[18]

ومثل هذه الكتب كانت ترسم المصطلحات العربية بالحروف اللاتينية فيقولون مثلا :

الله أكبر Allah ua aqbar

سبحان ربي العظيمçubhana rabbi ilhadim

سمع الله لمن حمده çemi allahu limen hamdehu

اللهم ربنا ولك الحمد Allahuma rabbane qual col hamdu

ومن هذه النماذج الشيءُ الكثير الذي يعبِّر عن مدى تعلق المورسكي بالحرف العربي ، ويكتبها مثلما يكتب بعضنا الرسائل القصيرة في جهازه في هذا الوقت.

كما كتبوا أشعارهم باللغة الألخميادية وبالحروف العربية دائما ؛ ومن ذلك قصيدة يوسف الشهيرة ، و تسمى في كتب الأدب El Poma de José أو "حديث يوسف"Alhadits de José El-،منظومة في مقطعات بأربعة أبيات في كل منها بقافية واحدة ،و من البحر القشتالي القديم (الكوادرْنوبيا) Cuaderno Via . تروي قصة النبي يوسف عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم في سورة يوسف مضافا إليها بعض الأساطير[19] :

حديث دا يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

لوميانت أد الله ، أللت ياش أبارددار

أنرد اقنبلد ، شانر دارايتـــــــرار

شانر تاتد ، أن شل اشـــــانر

فرانكو ابدارشه ، أرداندر شارتـــــار

غرن باش ال ، شبدار تد ألمند أبـــرق

نن شلا أنقبر اكشه كا أنالمند نسق

شقيارا ان لمرن يان تد لكمرق

ن يان لتيار برياته ن يان لبلنـــــق

فغبش أشبار ، أيداش ، مش أمـــدش

لك كنتاشية ان لش تيانبش بشـــدش

أجق اييوسف ايشش داش ارمنـــش

بر كبدشيه أنبدية أبيارن أشايار ملش.

وترجمتهما :

قصة يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي الحق

العزيز الكامل الملك العادل

رب العالمين الواحد الأحد الصمد

الكريم القوي القيوم

هو الأكبر ، تعم قوته كل شيء

ولا تخفى عليه خافية في الكون

لا في البر ولا في البحر

لا في الأرض السوداء ولا البيضاء

اعلموا واسمعوا يا أحبابي

ما حدث في الأيام الغابرة

ليعقوب ويوسف وأخوته العشرة

الذين بالطمع والغيرة أصبحوا شريرين.

ولم يكن المورسكيون يغفلون عن أهم ما يجب أن يتعلموه لينقلوه إلى ذويهم ؛ فالقرآن الكريم وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وقصص الأنبياء وكتب الفقه والحديث ، وكتابة البسملة والآيات القرآنية ..كل ذلك كان من أوكد الواجبات بالنسبة إليهم والأصول التي يجب عدم التفريط فيها.

لقد استقر الدين في قلوبهم ، وإن حُملوا على التنصير في الظاهر؛ إذْ كانوا يمارسون شعائرهم خفية وشعائر التنصير علنا وادعاءً. وقد وصف ذلك أحد المطارنة سنة 1565 فقال : ((إنهم خضعوا للتنصير ،ولكنهم لبثوا كفرةً في سرائرهم ، و يذهبون إلى القُدَّاس تفاديا للعقاب ، ويعملون خفية في أيام الأعياد ، ويحتفلون بيوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الأحد ، ويغتسلون حتى في ديسمبر ، ويقيمون الصلاة سرا ، ويقدمون أولادهم للتنصير ، ويجْرون ختان أولادهم ، ويطلقون عليهم أسماء عربية وتذهب عرائسهم إلى الكنيسة في ثياب أوربية ، فإذا عُدنَ إلى المنزل استبدلن بها ثيابا عربية ، واحتفل بالزواج طبقا للرسوم العربية ووفقا للشعائر الإسلامية)).[20]

ب ــ الدين الإسلامي وسياسة التنصير وموقف المورسكيين:

لا شك في أن الصراع العقدي بين المسيحية بزعامة الكنيسة الكاثوليكية والإسلام في الأندلس لمدة قرون من الزمن كان على أشده. ولنا أن نتصور حياة المسلمين في ظل هذا الصراع المرير.

وبعد أن طرد الأسبانُ اليهودَ مبكرا ، جاء دور المورسكيين الذين كانوا مستهدفين في إطار سياسة التنصير التي باتت ــ حسب المسيحيين ــ الحل الأوحد الذي يضمن لهم القضاء على الدين الإسلامي .ولم تكن الإجراءات أول الأمر بالقوة ، بل كان في تصورهم أن يقتنع المسلمون الباقون بالديانة المسيحية ، ويقبلون عليها دون إكراه ، معتمدين في ذلك على المهمة التبشيرية للمطران الأول ، فراي إيرناندو دي تلابيرا Fray Hernando de Talavera الذي كلن يفضل في مشروعه الوسائل السلمية . إلا أن هذه الطريقة لم تدم طويلا ، وانتقلوا إلى السرعة القصوى في سنة 1499م لتسريع عملية التنصير التي كلف بها الكاردينال ثيسنيروس Cisneros لينجح المنصِّرون في عام 1526م من تنصير جميع مسلمي مملكة أراغون قسرا.

حرصوا على تطبيق هذ السياسة القمعية العنصرية ، وهم يدركون أنهم لن يفلحوا مع الآباء ، ولكن لم ييأسوا من إيقاع الأبناء والأحفاد في شراكهم . وتنفيذا لهذه الخطة طلب من المورسكيين التخلي عن أعيادهم ، وملابسهم التقليدية ، وعن استخدام اللغة العربية...وعُدَّت الدعوة إلى الدين الإسلامي أخطر الجرائم التي يعاقب عليها القانون. ((من الأساليب التي استعملت ضد مسلمي الأندلس ، أخذ أطفالهم الذين تراوح أعمارهم ما بين 5 ــ 12 سنة ليُربُّوا تربية خاصة في المعاهد المسيحية ، ويلقنوهم المسيحية ويزرعوا في قلوبهم التعصب المقيت ضد ذويهم المسلمين. وبعد نضوجهم يُستعمَلون أداة للتجسس عندما يُعادون إلى أهاليهم، ليخبِروا بكل صغيرة وكبيرة ، تدور في بيوت آبائهم ثم يقوم الأسبان بإنزال أقصى العقوبات بالمسلمين ، وهي الموت تنكيلا بالعذاب والحرق.))[21]

ومن الإجراءات العملية التي دأب عليها الملوك الحاقدون على المسلمين الذين رضوا بالبقاء في الأندلس لسبب أو لآخر حملاتُ التنصير التي لم يتوانَ أصحابها على تطبيقها بإحكام ؛ فهذا الملك فيليب الثالث يعترف بسعيه الحثيث في

خطته منذ سنين طويلة في ذلك ، والإقرار بفشل مسعاه ، إذ يقول :

((...إنكم على علم بمحاولاتي مدة سنين طويلة لتنصير هذه المملكة بلنسية وكذاك قشتالة ...وبإصداري أوامر العفة منَّةً مني عليهم ... وبالنتائج الهزيلة المحصّل عليها ، إذ من الواضح أنه لم ينتصر أحد بل على العكس لم يزدهم إلا إصرارا.))[22].

لتكون بذلك المادة الحادية والثلاثون (30) التي تنص على أنه((إذا سبق لنصراني ذكرا كان أو أنثى ، اعتناق الديانة الإسلامية قبل إبرام هذه الاتفاقية ، فلا يحق لأحد من النصارى أن يهدده ، أو ينال منه بأية صورة ، ومن يفعل ذاك يعاقب))[23]، و المادة الثانية والثلاثون (32) القاضية بـــأنه ((لا يجوز إرغام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية))[24] حبرا على ورق ، بل كانت للتضليل فحسب ، ولبعث الطمأنينة في أوساط المسلمين، ثم خداعهم في النهاية. وما أطلت سنة 1499 حتى نزلت مراسيمُ تقضي بإبطال العمل بوثيقة التسليم إبطالا كليا على خمس وخمسين بالمائة 55 %) (من الغرناطيين ، وطرد كل من يرفض التنصر وترحيله ، مع إجبار مَنْ بقي من المسلمين على التنصر ، وكان ذلك في بلنسية في سنة 1521 الذين كانوا يشكلون نسبة حوالي أربعين (40 %) في المائة من السكان.

ومع هذا الوضع كان حال المسلمين ماضيا من سيء إلى أسوأ ؛ ذلك بعد أن أمعن النصارى في سياستهم التنصيرية ، أو طردهم إذا رفضوا ذلك وتهجيرهم خارج الأندلس ، وصدرت لأجل ذلك مراسيم ملكية رسمية تتضمن إقصاء هؤلاء المسلمين عن وطنهم شبه جزيرة إيبيريا.

وفي مجال الزواج أرغمت الفتاة المسلمة للزواج من نصراني ، والرجل المسلم بنصرانية ، إمعانا من المسيحيين في القضاء المبرم على تعاليم الدين الإسلامي في نفوس أبناء المسلمين. وقد نجح المسيحيون في إقناع بعض المسلمين بما يخططون ، بحكم قرابة الزواج من النصرانيين مقابل منحهم ضياعا وامتيازات مغرية ؛ إذْ يذكر هذه الحقيقةَ الباحث المغربي عبد الله عنان قائلا : ((وكان قد اعتنق النصرانية قبيل سقوط غرناطة وبعدها ، جماعة من الأمراء والوزراء ، وفي مقدمتهم الأميران سعد ونصر ، ولدا السلطان أبي الحسن من زوجه النصرانية إليزابيث دي سوليس المعروفة ثريا ، فقد تنصرا ومنحا ضياعا في أرجبة ، وتَسَمَّى أحدهما باسم " الدوق فرناندو دي جراناد " (أي صاحب غرناطة) ...وتَسَمَّى الثاني باسم " دون خوان دي جرانادا " . وتنصر سيدي يحي النيار قائدُ ألمرية وابنُ عمِّ مولاي الزعل.. وتنصرت زوجة السيدة مريم ابنة الوزير بنيغش ، وتنصر ابنه علي...وتنصر الوزير أبو القاسم بن رضوان بنيغش ، ومعظم أفراد أسرته...)).[25]

و الناظر إلى هذه القائمة يقف على حقيقة الذين صادتهم شراك الكنيسة الكاثوليكية يوم سهلت لهم الطريق إلى الزواج بالنصرانيات، وشجعتهم على ذلك ليكون تنصُّرهم وإدخالهم في صفهم من أيسر الأمور.

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يدرك القارئ إقبال بعض من هؤلاء الحكام المسلمين على

النصرانيات لهوى في النفس، استولى على الضمير، فانساق إلى حتفه وهو لا يعلم مصيره الذي خُطِّط له عن غفلة منه ، أو عن وعي يشبه الغفلة.

هذه بعض مظاهر العنصرية والبربرية الإسبانية التي تعبّر عن روح العداء الشديد الذي يكنونه للمورسكيين ، ولا أدل على ذاك العداء من وصية الملكين فرديناند وإيزابيلا الكاثوليكيين قبل موتهما :

((1 ــ ماتت الملكة إيسابيلا وهي توصي " بمتابعة الحرب ضد أعداء الإيمان المسيحي ".وتقصد المورسكيين.

Murio La Reina Isabel Encargando La Peleacontra Los Infieles Enemigos de La fe.

2 ــ مات الملك فرديناند الكاثوليكي عام156م ، يوصي أولاده قائلا " عليكم أن تعملوا على تحطيم أتباع الديانة المحمدية " .ويقصد استئصال المورسكيين من جذورهم.

Murio D.Fernando en 1516 diciendo à sus hijos que procuraran La ddestruccion de la Secta Mahometana.[26]))

وتوالت القرارات التنصيرية في قشتالة وإشبيلية وليون عام 1502م ، وتعدى ذلك إلى الطوائف الأخرى كاليهودية التي لم تسلم هي الأخرى من هذه الإجراءات التعسفية بحق أصحاب الأرض قرابة ثمانية قرون. ((وبعد عام ألفٍ وخمسِمائة واثنتين للميلاد ، كان من تبقى من المسلمين الذين غلبوا على أمرهم ، ودخلوا الديانة النصرانية مكرهين ، يتظاهرون بقبولهم لهذا الدين الجديد.

فكانوا يترددون على الكنائس ، والأديرة ، لكي يشاهدهم الأسبان ، ويرضوا عنهم لقبولهم هذه العقيدة الجديدة المفروضة عليهم. لكنهم ــ في حقيقة الأمر ــ لم يقبلوا بالنصرانية عن الإسلام بديلا ، إلا في ظاهر الأمر . وقد استمروا في ممارستهم لشعائر دينهم الأصلي ، سرا أيام الجمعة . وكانوا يؤدُّون فرائض الصلاة داخل بيوتهم بحذر شديد، وكانوا يغلقون على أنفسهم بيوتهم أيام الآحاد، موهمين الطرف الآخر بأنهم ذهبوا إلى الكنيسة.))[27]

إلى جانب ذلك كان المورسكيون يعقدون حفلات الزواج على الطريقة الإسلامية سرا في بييوتهم عندما يعودون من الكنائس . وقد لعبت المرأة المورسكية دورا فعالا في تنشئة أطفالها على تعاليم الإسلام الصحيحة ؛ بتعليمه أصول العقيدة من الثالثة عشرة حتى الخامسة عشرة زيادة في الاحتياط أمام النصارى الذين كانوا يترقبونهم في كل مكان ؛ لأن هؤلاء الأطفال كثيرا ما اختير منهم رهبانا وقساوسة بعد أن أدخلوهم الكنائس والأديرة ، وأشربوهم النصرانية فصاروا مُبشِّرين لها من حيث لا يشعرون.

كما كانت الأمهات حريصات على غسل أطفالهن الذين يُعمَّدون في الكنائس لإزالة أثار الصليب عنهم.

وما ذلك إلا تعبير على إصرارهم بأنهم مسلمون ولا يقبلون المساومة في دينهم الذي اعتنقوه مثلما اعتنقه آباؤهم وأجدادهم ، يقول أحدهم : ((وإن المورسكيين لا يعترفون ، ولا يقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة ، ولا يأكلون لحم الخنزير ، ولا يشربون النبيذ ، ولا يعملون شيئا من الأمور التي يعملها النصارى...إن هذا المروق العام لا يرجع إلى مسألة العقيدة ، ولكنه يرجع إلى العزم الراسخ

في أن يبقوا مسلمين ، كما كان آباؤهم وأجدادهم ..)).[28]

وبالرغم من كل محاولات التركيع التي نفذتها زبانية محاكم التفتيش لأجل رد المورسكيين عن دينهم إلا أنهم فشلوا ، وباعتراف منهم في أكثر من مناسبة ؛ فبقدر ما كانوا يسومونهم ألوان التعذيب والتقتيل ، إلا أنهم يزدادون أكثر تعلقا بالدين الإسلامي الذي لم يستطيع رجال الكنيسة محوه من قلوب أبنائه .

خاتمة:

تلك هي محطة من حياة المورسكيين الذين تعاهدوا مع الآخر(النصراني) على العيش في أمن وسلام بعد تسليم مفاتيح غرناطة ؛ آخرِ قلاع المسلمين بالأندلس ، هي قصة بقدر ما تعبِّر عن مأساة المسلمين بسبب سياسة إسبانيا البربرية ، بقدر ما تفيض بصور الاستشهاد والتضحية من أجل الحفاظ على هويتهم الممثَّلة في اللغة العربية التي لم يرضوا عنها بديلا ، والدين الإسلامي الذي لم يعتنقوا دون سواه دينا .

فقد كانت سياسة إسبانيا في هذه الفترة ؛ فترة طرد المسلمين وقَبلَهم اليهود إيذانا في الغوص في أعماق التخلف والانحدار والسقوط في هاوية الأزمة الاقتصادية ؛ لأن أركانها المورسكيين غادروا الواقع ، والانحدار الحضاري بعدما خرَّب الأسبان المواقع العمرانية التي شيدها المسلمون ، فخسرت بذلك إسبانيا كل أسباب التقدم والتحضر بعدما هاجر وهُجِّر المورسكيون بسبب الإبادة و العسف والاضطهاد الذي طالهم حتى أصبح سكان المملكة الإسبانية كلها بعد طرد المسلمين بعد عام فقط ستة ملايين في حين كان سكان قشتالة وحدها أيام سقوط غرناطة سبعة ملايين.

الهوامش

[1] ــ المدجنون هم المسلمون الذين نُصِّروا عنوة وقوة.

[2] ــ ينظر : أحمد الكامون وعاشم السقلي ، التأثير المورسكي في المغرب ، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، وجدة ، المغرب ، ط 1 ، 2010 ، ص 37 ، 38.

[3] ــ المورسكيون : Los Moriscos اسم يطلق على جميع المسلمين الذين بقوا في الأندلس بعد سقوط غرناطة عام 1492م. والاسم صفة من لفظ "Moro " ، والمقصود به في الإسبانية مسلمو الأندلس والمغرب، أو على عامة المسلمين.

[4] ــ محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، مصر ، ط3 ، 1966 ، ص245.

[5] ــ ينظر : الكتاني علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1، 2005 ، ص 214 ، 215.

[6] ــ بوزينب الحسين ، أين نحن وأين الآخر م المورسكي ؟ ، مقال بمجلة المناهل ، ع 66 ــ 67 ، 2002 ، ص281 ــ 282 ، نقلا عن : أحمد الكامون وهاشم السلقي ، التأثير المورسكي في المغرب ، ص114.

[7] ــ B.Vincent la cultura morisca,He 16 no .18

. نقلا عن : جمال عبد الكريم ، المورسكيون تاريخهم وأدبهم ، مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة ، مصر ، د ط ، دت ، ص 33.

[8] ــ Boronat : Los Moriscos.p : 652.

نقلا عن : جمال يحياوي ، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492 ــ 1610م، دار هومة ، بوزريعة ، الجزائر ، د ط ، 2004 ، ص213.

[9] ــ أقيمت محاكم التفتيش ؛ أو ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي في ق13م ، وذلك تلبية لحاجات الكنيسة الكاثوليكية لتحمي نفسها من الديانات الأخرى. وقد تولى هذه المؤسسة الآباء الدومينيكان ، وانتشرت في أوربا ، وفي إسبانيا.

[10] ــ لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، ط1 ، د ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ج1 ، ص 13.

[11] ــ محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الرابع نهية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، مصر ،ط 4 ، 1997 ص314 ، 315.

[12] ــ نفسه ، ص316.

[13] ــ ينظر : محمد عبده حتاملة ، الأندلس التاريخ والحضارة ، مطابع الدستور التجارية ، عمان ، الأردن ، دط ، 2000 ، ص 864.

[14] ــ نفسه ، ص 318.

[15] ــ نفسه ، ص867.

[16] ــ الكتاني علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس ، ص231.

[17] ــ نفسه ، ص 213 ، 214.

[18] ــ بالنثيا آنخل جنثالث ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة : حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، د ط ، 1955 ، ص507.

[19] ــ الكتاني علي المنتصر ، انبعاث الإسلام في الأندلس ، ص215 ، 216.

[20] ــ Lea M the moriscos...pp213 .2014 .

نقلا عن : عبد الله محمد جمال الدين ، المسلمون المنصرون ، المورسكيون الأندلسيون ، دار الصحوة لنشر والتوزيع القاهرة ، ط1 ، 1991 ، ص473.

[21] ــ محمد عبده حتامله ، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (1474 ــ 1516م) ، الجامعة الأردنية ، عمان ، الأردن ط1 ، 1980. ص60.

[22] ــ Mersedes Garcia Arenal : Los moriscos y La inquisicion –procesos del tribunal de cuenca-Madrid 1978..251: p

. نقلا عن : جمال يحياوي ، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492م ــ 1610م ص67.

[23] ــ محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، مصر ، ط3 ، 1966، ص247.

[24] ــ نفسه ، ص248.

[25] ــ محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الرابع نهية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، مصر، ط 4 ، 1997 ص 315.

[26] ــ Pascual Boronat y Barrachina , Pbro . Los Moriscos Espanoles y su exppulsion , 1901 page Valenci Tomo 1 116 -117

نقلا عن : محمد عبدة حتامله ، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (1474 ــ 1516) ، ص 114.

[27] ــ محمد عبده حتاملة ، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (1474 ــ 1516م) ، ص110 ، 111.

[28] ــ Vida Religiosa da Los :P. Longàs Moriscos ; p.LXV3.

نقلا عن : محمد عبد الله عنان ، دواة الإسلام في الأندلس العصر الرابع ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ص 395.